الفصل العشرون

الوطن: النار تحت الرماد

قبل الأحداث المروعة في عكّا ببضعة شهور، تركت إليانور المقتدرة والمتفرّدة والمتمرّدة ابنها المفضّل، ريتشارد، في صقلية واتجهت شمالاً نحو روما. وكان بين وجهاء حاشيتها رئيس أساقفة روان Rouen الذي أُبطل قَسَمُ مشاركته في الحملة الصليبية في مسّينا لكي يمكنه التفرّغ لأعمال سياسية أكثر أهمية. وبوضع برنغاريا في موكب الملك وإصدار الأوامر الصارمة بضرورة زواجهما بعد انتهاء فترة الصوم الكبير في أيّ مكان وُجدا (لم يخطر لإليانور أن تكون قبرص مكاناً للزواج)، لا بدّ أنّها شعرت بالرضا لكونها حلّت مشكلةً أساسيةً من مشاكل المستقبل.

لم تكن استمرارية سلالة بلانتاجينيه من اسكتلندا إلىٰ البيرنيه الهمّ الوحيد الذي يُثقل على أفرادها. ومع انشغال الملك بحملته الصليبية بعيداً في فلسطين، كان لإليانور، أَو بالأحرى هي اغتنمت الفرصة، أن تُخمد نيران البيت، وتحافظ على أجزاء المملكة موحّدةً حتّى عودة ريتشارد. وهكذا أصبحت إليانور أكثر من ملكة عادية، لقد أصبحت ملكةً مطلقة السلطة.

والتحدّي الفوري الذي كان عليها مواجهته هو مراقبة الطامعين بعرش

ريتشارد، خصوصاً ابنها الأصغر والأقل مكانةً لديها جون. فقبل سنتين، عندما تُوّج الملك الجديد، أظهر ريتشارد كرماً غير عادي تجاه أخيه الأصغر، رغم أنّه كان يضمر ازدراء الأخ الأكبر تجاه تصرّفات جون الصبيانية والنزقة. أعاد ريتشارد أخاه جون معه إلىٰ إنكلترا لكي يشارك الأَمير في أبّهة احتفالات التتويج. وفي دير وستمنستر، قاد جون بكلّ أناقة الملك المنتظر إلىٰ المذبح، وهو يمسك بواحد من السيوف الملكية الذهبية. وبعد انتهاء المراسم سلّم ريتشارد أخاه حكم مقاطعة مورتاني في النورماندي، ونوتنغهام، وقلعة مارلبورو، وأضاف إليها مقاطعات دورست، وسومرست، وديربي، ولانكستر، وإرلية غلوسستر. وخلال أسابيع قليلة، عيّن الملك أخاه على رأس حملة لقمع تمرّد في إمارة ويلز. بعد إنجاز هذه المهمّة بنجاح، كافأ ريتشارد أخاه جون بإضافة مقاطعة ديڤون إلىٰ مجالات سلطته. والجدير بالذكر أنّه قبل بضع سنوات فقط، كان جون عرضة للسخرية ولقبه «جان بلا أرض»، أمّا الآن فقد أصبح غرب إنكلترا بكامله تحت قيادته.

وبالرغم من كلّ كرمه هذا، لم يسمّ ريتشارد أخاه جون خلفاً له على العرش وقد أثار هذا الأمر بلبلةً ونقاشاً حادّين، وبالأخصّ مع احتمال مقتل ريتشارد في الأراضي المقدّسة. كما سبّب عذاباً كبيراً لجون الشكّاك، الذي تخوّف من إمكانية إقدام أخيه الملك في قرار متسرّع على تسمية ابن أخيهما الأصغر، جوفري، وريثاً للعرش. وممّا زاد في إغاظة جون أنّ ريتشارد سلّم زمام الحكم لأحد مستشاريه، وليم لونشان Longchamp، بعد تعيين هذا النورماندي المقدام رئيساً للمحكمة وأسقفاً لمنطقة ألي Ely. حالما أصبح لونشان أسقف ألي، أقنع البابا بأن يجعله مندوباً بابوياً لكلّ من إنكلترا، وويلز، واسكتلندا، وإيرلندا، وكما يقول المؤرّخ ريتشارد أوف دڤيز: «هكذا بثلاثة ألقاب، وثلاثة مناصب، يستطيع استعمال كلتا يديه بدلاً من يده اليمنى وحدها، كما يمكن لسيف بطرس أن يساعد سيف القائد».

لم يكن لونشان يتكلّم الإنكليزية ولم يكن لديه الاستعداد لتعلّمها. ميزته الرئيسية ليصبح وصيّاً على العرش، كان ولاءه الثابت لريتشارد، منذ كان مستشاراً له في أكيتان. وقد كان مستشاراً فطناً وقاسياً أيضاً، أي كان يمتلك الصفات الصارمة التي يحتاج إليها الملك الغائب في شخص قوي ليصون حكمه أثناء غيابه.

ولكي يضمن عدم تدخّل جون بسلطة المستشار، أصدر ريتشارد في بادىء الأمر قراراً يقضي بمغادرة جون إنكلترا لمدّة ثلاث سنوات. وبالرغم من أنّ إليانور أقنعت ريتشارد بالتخلّي عن هذا القرار، فإنّ الساحة كانت تتهيّأ لمعركة شرسة بين جون ولونشان في غياب ريتشارد.

كان هناك لاعب ثالث في ما وراء كواليس هذه المسرحية وهو جوفري Geoffrey آخر، الابن غير الشرعي لهنري الثاني من امرأة إنكليزية مجهولة. لقد كان مختالاً فخوراً يفتقر إلىٰ اللباقة، بالإضافة إلىٰ عصبيته وسرعة غضبه. كان كمن حمل ولادته غير الشرعية على ذراعه متباهياً بها وراح يتصرّف كأنّه مدينٌ بالكثير لهذه المهانة المحرجة. وبما أنّه كان انفعالياً ومفاجئاً بمواقفه، كان يبدو متأرجحاً طوال الوقت، بين العناد والتواضع المتملّق. أمّا إليانور التي أُجبرت على تربية هذا الولد من قبل زوجها، فكانت تكرهه كثيراً لأنّه ثمرة فجور هنري، وتُعامله معاملة زوجة الأب الشريرة. على أي حال لقد خدم جوفري أباه جيداً. فقد أظهر موهبةً لافتةً في الإدارة بالإضافة إلىٰ نهضته للدفاع عن أبيه خلال ثورات متعدّدة. وهكذا أيقن ريتشارد وإليانور أنّ عليهما تلبية طلبات جوفري الشرعية. وقد شكّلت رغبات هنري حلاً محموداً بالنسبة لريتشارد وإليانور؛ فقد عبّر هنري الثاني وهو على فراش الموت عن رغبته في أن يكون ابن نزوته (جوفري) أسقفاً لمدينة يورك. وبجعله أسقفاً، حُرم جوفري من الحلم باعتلاء العرش. وفي يورك تمّ نفيه بعيداً إلىٰ الشمال، بالإضافة إلىٰ قيام السلطات الملكية بالتقليل من أهميّة منصب الأسقف في يورك.

كان الحلّ ممتازاً، إلاّ أنّه لم يُعمل به بسبب اعتراض عدّة أساقفة على تعيين جوفري أسقفاً واعتبارهم هذا التعيين باطلاً، لأنّ جوفري بدا غير مناسب بتاتاً لاعتمار القلنسوة. فقد كان بطبعه محبّاً لاقتناء السيوف ذات القبضتين، والصقور، وكلاب الصيد الرشيقة بدلاً من الاقتناع بعباءة رجل الدين وعكازه. وقد أُطلقت عليه تسمية القاتل وابن العاهرة. وسئل البابا مرّات أن يكرّس تعيين جوفري أو أن يبطله. وقد ناشد جوفري ريتشارد آملاً منه أن يبقيه في خانة أصدقائه واعداً إياه بجمع المال لدعم الحملة الصليبية. إلاّ أنّه انقلب ليصبح في خانة أعداء الملك بعدما فشل في تحقيق وعده. وكان ريتشارد يزدري أخاه غير الشقيق مرّة ويجده نافعاً مرّة أخرى.

في صقلية، حملت إليانور الأخبار السيئة إلى ريتشارد ومفادها أنّ أخاه جون ووليم لونشان أصبحا خارج السيطرة. لقد كان جون يستعرض نفسه في البلاد وكأنّه الملك ساعياً لإخضاع المملكة لسيطرته مدّعياً أنّ ريتشارد لن يعود حيّاً من حملته الصليبية في الديار المقدّسة. أمّا لونشان، بدوره، والذي لم يكن يطمح لأن يكون ملك إنكلترا، فقد أراد أن يكون دكتاتوراً عليها. وقد وصفه أسقف كوفنتري، أحد أصدقائه، بأنّه كان يجول في البلاد «مقفلاً خياشميه، مع تكشيرة على قسمات وجهه وسخرية في عيونه وعجرفة على جبينه». لقد كان المستشار يتنقّل داخل البلاد ومعه رتل كبير من التوابع والكلاب والصقور والخيول بشكل يجعل من شرف استقبال مبعوث الملك هذا كضيف، يفلس صاحب الدعوة لسنوات. لقد خصّص أسقف ألي Ely أراضي لنفسه ولعائلته، كما أجبر أبناء النبلاء الإنكليز على إهانة أنفسهم وعائلاتهم بجعلهم يخدمونه وهم راكعون على ركبهم. وقد استقرّ لونشان في أكسفورد مع ديوان ملكي مؤلّف من النورمانديين والفلمنكيين الذين كان همّهم الأساسي السخرية من الإنكليز.

إثر ذلك، عمّت موجة اشمئزاز عارمة ضد لونشان في مختلف أرجاء

إنكلترا. وكتب عنه شمّاس يوركشاير: «اعتبره العلماني ملكاً بل أكثر من ملك، واعتبره رجل الدين بابا وأكثر من بابا، وكلاهما رأيا فيه مستبدّاً لا يطاق». ولأنّه كان من أصل نورماندي، كان يتصرّف وكأنّه ينتمي إلىٰ عرقٍ أسمى. لقد ظهر في معظم الأحيان وهو «يجاهد من أجل أن يضع نفسه في المستوى ذاته مع الصفوة». وكتب جيرالد أوف كامبريدج، وهو أحد الكتبة الرئيسيين للحملة الصليبية الثالثة، مقالاً عن لونشان يصف فيه ولادته الدنيئة؛ كما يقدّم وصفاً لجسده مشبّهاً إياه بالقرد والكلب معاً بسبب «ساقيه المنحرفتين، وقدميه الهائلتين، ورأسه الكبير، وبشرته السمراء، وعينيه السوداوين والغارقتين، ووجهه المكسو بالشعر، وابتسامته الشريرة»، فضلاً عن طباعه السيئة وأخلاقه المنحلّة. ويبدو من خلال هذا الوصف اللاذع أنّ جيرالد لم يكن يحبّ النورمانديين.

وخلال صيف سنة 1191م بينما كان ريتشارد يضرب أسوار عكّا، كان الصراع بين أخيه جون ومستشاره لونشان قد بلغ حدّ الانفجار. قام لونشان بمحاصرة قلعة لينكولن في حين قام جون بمحاصرة نوتنغهام وتيكهيل؛ والشيء الوحيد الذي حال دون تطوّر هذا الانقسام الحاصل إلىٰ حرب أهلية واسعة كان نداء عدد من الأساقفة أقنعوا الفريقين بضرورة الهدوء وإعلان الهدنة. لكن الاتفاق كان يدور حول الأمور المستقبلية أكثر من الأمور الآنية، إذ كان هناك احتمال أن يفارق الملك هذه الحياة خلال رحلة حجّه إلىٰ الأراضي المقدّسة. وبالرغم من أنّ الوضع هدأ في الوقت الحاضر، إلاّ أنّ الأطراف المختلفة راحت تقسّم القلاع الخاضعة لسلطة ريتشارد فيما بينها.

في صقلية، رأت إليانور ومعها ريتشارد ضرورة تثبيت جوفري أسقفاً ليورك، لأنّه كان لا يزال محبوباً في إنكلترا كونه ابناً لملك إنكليزي وأخاً لخلفه بالإضافة إلىٰ كونه ابن امرأة عادية من عامّة الشعب، وهذا ما جعل الناس العاديين يحبونه. هذه الشعبية التي تمتّع بها لعبت لترجيح الكفّة المقابلة

لتجاوزات جون ولونشان. كما وضع ريتشارد في يدي إليانور بعض الرسائل المختومة التي كان من شأنها إعادة المتخاصمين إلىٰ طريق الصواب مجدّداً. ولكن هذه الرسائل التي كتبت بعيداً عن الوطن لم تكن كافيةً لوضع حدّ للصراع القائم.

وقد وقعت هذه المشاكل في إنكلترا بالرغم من الإرشادات العريضة التي نصّت عليها واحدةٌ من أكثر الوثائق مهابة في الحملة الصليبية والتي أُطلق عليها اسم «وثيقة هدنة الله» وكان جوهرها القسَم المطلق لأي ملك أَو أَمير مسيحي أثناء الحج العسكري في حرب عادلة ومقدّسة. وقد كانت لهذا القسم جذوره في الحملة الصليبية الثانية. ووفقاً لبنوده، وافق الملوك على عدم استغلال غياب نظرائهم من الأمراء والملوك خلال قيادتهم للحملة الصليبية للاستيلاء على الحكم وتحقيق مطامع شخصية. ونصّت هذه الوثيقة على أن تتوّج هدنة الله بقبلة يتبادلها الطرفان المتنازعان. وتطبيقاً لنص هذه الوثيقة، أقسم لويس ملك فرنسا وزوج إليانور الأوّل قسم الحج قبل مغادرته إلىٰ الأراضي المقدَّسة سنة 1147م. كما طبّق هذه الهدنة هنري الثاني، زوج إليانور الثاني، مع فيليب أغسطس تحت شجرة الدردار في جيسور Gisors سنة 1187م، وطبّقها ريتشارد مع فيليب أغسطس أيضاً وتبادلا قبلة السلام في ڤيزيلي خلال اجتماع جيشيهما سنة 1190م.

وقد أعادت الاتفاقيات التي حملتها إليانور معها إلىٰ روما الاعتبار لوثيقة هدنة الله، خصوصاً وأنّ النزاع القائم بين جون ولونشان جعل منهما خارقين كبيرين لأُسس تلك الهدنة المقدَّسة. وقد أرادت إليانور أن تضع بركة البابا حدّاً لهذا النزاع المدني ووفقاً لشروطه. ومن أجل ذلك وصلت إلىٰ روما المدينة الخالدة في اليوم ذاته الذي أُعلن فيه الإكليريكي هياسنتوس بوبو Hyacinthus Bobo والبالغ من العمر ثمانين سنة باباً جديداً باسم لستين الثالث وكان في السابق رئيس شمّاسي الكنيسة خلال الأزمة الرهيبة المتعلّقة بتوماس آ. بيكيت

قبل سنوات عديدة، ممّا يعني أنّه يعرف جيّداً المخاطر والفرص التي كانت كامنةً في الصراعات القائمة بين الملوك والأساقفة. لقد كان البابا الجديد مؤيّداً بالطبع للحملة الصليبية، ولكن لم يكن لديه أيّ تصوّر حول دوافع المشاركين فيها، وممّا يقوله حرفيّاً في هذا السياق: «لم يكن بالطبع الخوف من الله أو الشعور بالندم الدافع الذي دفعهم للقيام بالحملة بل إنّ الكبرياء والصلف كانا الدافعين الوحيدين».

وبالرغم من ذلك، كان البابا ما يزال متعاطفاً مع مطالب إليانور. فمنح الطيلسان رسمياً لجوفري بصفته أسقفاً لمدينة يورك، وكرّس أسقف روان Rouen ممثّلاً أعلى للبابا، الأمر الذي جعله أرفع مكانةً من وليم لونشان باعتباره مستشاراً وأسقفاً لألي Ely. أمّا إليانور التي كُلّفت رسمياً بإدارة شؤون السلطة من قبل ريتشارد في الرسائل المختومة، فقد تعزّز موقفها بالمرسوم البابوي الذي كرّسها وصيّةً على عرش ريتشارد. بكلّ هذه الثقة تركت إليانور روما وعبرت نحو جبال الألب. وفي منتصف فصل الصيف، حجبت نفسها في قلعة روان وهي تلقي عيناً حذرةً عبر القناة، وعين حبّ واهتمامٍ على أراضيها الأوروبية.

وإذا كان ريتشارد قد عزم على الحدّ من تجاوزات مستشاره القوي، فهو لم يقوّض سلطته بل على العكس. وفي 6 آب/ أغسطس، وبينما هو في انتظار أن يوافق صلاح الدِّين على شروط الاستسلام في عكّا، كتب رسالةً إلىٰ لونشان يشرح له فيها وضعه الحالي. وفي تقييم سريع لمجريات الأمور، قام الملك بإعلان نبأ فتحه قبرص وإحكام قبضته على عكّا متوقّعاً أن يعود إلىٰ دياره في إنكلترا مع بداية الصوم الكبير المقبل عودة المنتصر والمسيحي المتواضع، مع تأكيده بأنّ القدس وقبر القيامة سيكونان مجدّداً تحت سيطرتهم المشروعة.

ومع صحوة إليانور، اتّجه جوفري إلىٰ إنكلترا مدعوماً بتعيين البابا له أسقفاً ليورك، إلاّ أنّ عملاء وليم لونشان حجزوه في النورماندي ومنعوه من

عبور القناة مؤكّدين له أنّ الملك نفسه قد أصدر قبل سفره إلىٰ الأرض المقدَّسة أمراً يقضي بمنع عودة جوفري إلىٰ دياره لمدّة ثلاث سنوات. ولم تلاقِ احتجاجات جوفري على أوامر ريتشارد الجديدة آذاناً صاغية. إلاّ أنّ جوفري تجاهل التحذير وعبر القناة إلىٰ دوڤر حيث تمّ اعتقاله من قبل شرطة لونشان بطريقة وحشية. إذ كان الأسقف قد توجّه بعد عبوره القناة بسرعة شديدة إلىٰ دير القدّيس مايكل المحلّي حيث كان يقيم قدّاساً عندما اقتحم رجال لونشان المكان. بعد خمسة أيام من الأعمال العدائية، دخل رجال لونشان الكنيسة عنوة وقاموا بجرّ الأسقف من على المذبح وهو لم يزل في ردائه الأسقفي وجالوا به شوارع دوڤر رغم اعتراضات الناس حتى وصلوا به إلىٰ قلعة دوڤر حيث أودع السجن.

وقد أعطى هذا التعدّي على الأسقف جوفري الإيرل جون فرصةً لطالما بحث عنها، فأمر بإطلاق سراح جوفري واستجاب لونشان لهذا الأمر، ولكن بعد ذلك راح جون يحرّض رجال الدين في إنكلترا على المستشار لونشان مستغلاً حادثة اعتقال جوفري التي سبّبت جرحاً عميقاً في قلوب الكثيرين منهم، وولّدت اعتراضاتٍ صاخبةً من جانبهم ضد لونشان. وممّا يدلّ على مدى سخط رجال الدين على لونشان هذا الاتّهام الشامل على لسان أسقف كوفنتري الموجّه ضد لونشان وقد جاء فيه:

«لقد أرهق هو وأصدقاؤه المعربدون كاهل المملكة بحيث لم يحفظوا لرجل حزامه، ولا لامرأةٍ قلادتها، ولا لنبيل خاتمه، ولا أيّ شيء ذي قيمة حتّى بالنسبة ليهودي. لقد أفرغ لونشان خزينة الملك كلّياً من المال بحيث لم يترك في الصناديق أَو الأكياس سوى مفاتيح الخزائن؛ وذلك بعد مضي أقل من سنتين على غياب الملك». ومع تزايد الحملة ضدّه، لجأ لونشان إلىٰ برج لندن حيث راح يحتجّ بشدّة على الاتهامات الموجّهة له، وممّا قال في سياق الدفاع عن نفسه: «لقد تمّ القبض على أسقف يورك من دون علمي أَو موافقتي، وإنّني

مستعدّ لأن أقدّم بياناً بجميع الأموال التابعة لخزينة الملك والتي صرفتها محدّداً أسباب صرفها وعلام صُرفت، ذلك لأنّني أخاف الملك أكثر ممّا تخافونه أنتم».

ثمّ تعالت بعد ذلك صيحات الناس مردّدين الكلمات التالية: «اقتلوا ذلك الذي يقف وراء كلّ دمار». ثمّ استحضروا إلىٰ الذاكرة كلام القدّيس لوقا: «ذلك الذي لا يستطيع أن يحطّم الجميع، دعوه يتحطّم. وإذا كان قد فعل ذلك في شجرةٍ خضراء، فما الذي سيفعله في شجرةٍ يابسة؟».

أمّا الهيئة القضائية المؤلّفة من النبلاء والأساقفة، الذين اجتمعوا للاستماع إلىٰ الاتّهامات الموجّهة ضد لونشان، فكان يُشهد لها بلياقتها ونظامها واهتمامها الشديد بمبادىء القانون المحدث والذي شُرّع في إنكلترا في أواخر عهد هنري الثاني. كما أنّ جون، إيرل مورتاني Mortaigne، تصرّف ببراعة سياسية ملفتة بتركه القرار لحكم القضاء من دون أي تدخّل منه، فقد كان يقدّر رأي القضاء ويحترمه ويحرص على عدم تجاوزه لأنّه كان يعي بقوّة أنّ الرهان كان منصبّاً عليه في هذه القضية أكثر من براءة لونشان.

أمّا بالنسبة إلىٰ المستشار لونشان فإنّ النتيجة كانت محسومة، ونصّت إحدى الرسائل التي بعث بها الملك ريتشارد من صقلية بأنّه إذا تصرّف لونشان ضدّ الوزراء الملكيين المعيّنين من قبل ريتشارد، فيتوجّب خلعه واستبداله أسقف روان به، ومع هذا النص انتهت قضية لونشان وبالتالي تمّت تبرئته وحرمانه كنسياً في وقت واحد.

استغلّ جون الدعوى لتحقيق رغباته، فقد أعلنت المحكمة أنّ الوريث الشرعي للعرش في حال وفاة الملك ريتشارد قلب الأسد سيكون حتماً جون، إيرل مورتاني.

لم يكن لونشان موجوداً أثناء محاكمته بسبب هروبه إلىٰ دوڤر. وأثناء هروبه، راودته لفترة وجيزة فكرة أن يحمل الصليب وينضمّ إلىٰ حملة ريتشارد

الصليبية كوسيلة للهروب من بؤسه. إلاّ أنّه عدل عن هذه الفكرة وقرّر أن يحتجّ على سوء معاملته في روما خصوصاً وأنّه كان لا يزال يتمتّع بدعم بعض المؤيّدين هناك. غير أنّ المشكلة التي واجهته كانت كيفية الخروج من إنكلترا. ومن أجل تحقيق هدفه، طرح ثيابه الكهنوتية جانباً، وعُدّة سلطته الزمنية، وتنكّر في زيّ امرأة سالكاً طريقاً طويلة مكسوّة بالأشجار الخضراء حتّى وصل إلىٰ الشاطىء حيث كان ينتظره زورق صغير. وقد علّق أسقف كوفنتري بسخرية على مشهد هروبه قائلاً: «تظاهر بأنّه امرأة رغم أنّه كره هذا الجنس دائماً، لقد استبدل بعباءة الكاهن ثوب المومس. يا للعار، لقد أصبح الرجل امرأة، وغدا المستشار مستشارة، والكاهن غانية، والأسقف مهرّجاً».

بينما كان لونشان جالساً على صخرة شاحب الوجه مرّ به صياد سمك، وكما يقول أسقف كوفنتري، «ربّما كان الصيّاد يبحث عن الدفء»، وهكذا عندما رأى امرأةً جالسةً لوحدها سارع إلىٰ معانقتها إلاّ أنّ الغطاء سقط وكشف عن سحنة لونشان السمراء. فقفز الصيّاد من مكانه مذهولاً وصاح مخاطباً أصدقاءه: «تعالوا لتروا الأعجوبة، لقد وجدتُ امرأة هي في الحقيقة رجل». فاحتشد حوله جمع من الناس ليروا المنظر العجيب وراحوا يتحدَّثون معه ويطرحون عليه أسئلة علّها تكشف لغز تلك الأعجوبة؛ لكن لونشان لم يكن يفهم الإنكليزية، وقد أثار عدم ردّه على الأسئلة غضب الناس من حوله. الأمر الذي جعل الأمور تأخذ مساراً سيئاً. فقد صاح واحد من الجمع قائلاً: «ارموا هذا الوحش بالحجارة». لكنّهم في النهاية قاموا بجرّه من أكمامه على طول الشاطىء وعبروا المدينة حتّى وضعوه في الزنزانة نفسها التي كان قد سجن فيها جوفري في قلعة دوڤر.

واستطاع لونشان في النهاية أن يذهب إلىٰ أوروبا حيث تمكّن من إحداث بعض المشاكل والاضطرابات لبضعة شهور. ومن أعماله التخريبية الذكية إعلام ريتشارد بطموح جون للوصول إلىٰ العرش، والقيام في الوقت ذاته بدفع مبلغ

من المال لجون من أجل إعادته إلىٰ منصبه القديم. وكي يحقّق مبتغاه ويفوز بقضيته صبَّ جام غضبه على صديقه المزيّف أسقف كوفنتري الذي كشف فضيحة تنكّره بزيّ امرأة في دوفر على العلن وبكلّ سرور وبهجة. وفي سياق هجومه على أسقف كوفنتري، كتب لونشان يقول إنّه «يجب على الجميع تفادي أسقف كوفنتري بحيث لا يتمكّن في المستقبل خروف مريض من القضاء على القطيع كلّه». إنّ براعة فقهاء ذلك الزمان في إهانة أحدهم الآخر أمر لا جدال فيه، ولكن لم تنجح أي إهانة من قِبل لونشان للمشنّعين عليه في أن تنقذه، فتوارى من الساحة.

وأضرّت نتيجة قضية لونشان بالملك ريتشارد، إذ أصبح أخوه الأصغر جون في مركز أقوى يمكّنه من تعطيل حكمه. وبالفعل كان الإبقاء على حالة اللااستقرار الوطني من أولى اهتمامات جون، بحيث عُطّلت قبضة ريتشارد الحديديَّة في بلاده، وفقدت اتّفاقية هدنة الله أهميّتها. لقد أصبح الخداع سيّد الموقف في إنكلترا، وإذ لم يلتفت الملك الغائب إلىٰ نداء التحذير، فقد كان من الطبيعي أن يعرّض نفسه لخسارة كلّ شيء. وبعد وصول أنباء كلّ هذه المشاكل تدريجياً إلىٰ ريتشارد، وهو لم يزل ينعم بانتصاره في عكّا، لا بدّ أنّه تساءل عمّا إذا كان الأمر يستحقّ المغامرة بحياته ومملكته.

وبعد أسابيع قليلة من سقوط عكّا، وقعت كارثة أعظم من كلّ ما سبق، وأدَّت إلىٰ اشتداد الخطر المحدق بسلطة ريتشارد فعلياً.

II

الغنائم

من الصحيح فعلاً أنّه مع وصول القوّات الإنكليزية والفرنسية المكتسحة سقطت مدينة عكّا. لكن بعد سقوطها، استمرّ ريتشارد وفيليب في جمع الغنائم

كلّها بحرص شديد منهما للحصول عليها وكأنّهما المعنيان الوحيدان بهذا الانتصار البطولي. لقد تجاهل الملكان حلفاءهما بابتهاج متناسيَين حقيقة أنّ الغنائم يجب أن تعود فعلياً إلىٰ من اغتنمها. كما سخر الملكان من مطالبة النبلاء المحلّيين بمملكة القدس والذين كانوا قد خسروا ملكيتهم باستيلاء صلاح الدِّين عليها قبل أربع سنوات. هؤلاء النبلاء كافحوا وبذلوا جهداً كبيراً للحفاظ على موطىء قدم للمسيحيين في الديار المقدَّسة. لقد صمدوا لمدّة سنتين في وجه نزاعات كبيرة قبل وصول الجيوش الأوروبية المجهّزة.

بعد ذلك إذاً قام الملكان بالتخلّي عن دور الجنود الإيطاليين والألمان والنمساويين. وقد ولّد احتقار الجنود الإنكليز للجنود الألمان نتائج رهيبة. وبعد انتشار نبأ وفاة فريدريك بربروسا، سارع شقيقه ليوبولد الخامس، دوق النمسا، في الذهاب إلىٰ الأراضي المقدَّسة ليتولّى قيادة الجنود الألمان بنفسه. وفي أحد الأيام، وخلال احتفالهم وابتهاجهم بالاستيلاء على المدينة، قام رجال ليوبولد برفع راية ذات خطوط بيضاء وحمراء فوق أحد المباني المهمّة، الأمر الذي دفع بالجنود الإنكليز إلىٰ إنزالها وتمزيقها والرمي بها في إحدى الحفر وهم يضحكون ويهزأون بإخوانهم الألمان. بعد هذه الحادثة، تمّ تعيين حرّاس على أبواب مدينة عكّا بحيث لم يعد يُسمح سوى للإنكليز والفرنسيين بدخولها، في حين تمّ منع الآخرين بقساوة غير عادية. ومن علامات التشدّد المتّبع في مدينة عكّا إجبار ثلاثة عشر جندياً غير إنكليز أَو فرنسيين على دفع غرامة مالية باهظة لمحاولتهم دخول المدينة من دون تصريح. لقد تناسى المحاسبون الفرنسيون والإنكليز بعض الأمور الحسّاسة واندفعوا وراء أطماعهم، وقاموا بتهيئة جداولهم وبدأوا بعملية العد والحسبان للغنائم والتي استهلكت وقتاً طويلاً، وقاموا بتقسيمها بالتساوي فيما بينهما. وبقي خارج هذا الاقتسام أولئك الذين يستحقّون فعلاً هذه الغنائم والذين خرجوا منها فارغي الأيدي.

وبالطبع أدّى هذا التكبّر إلى كُرهٍ مسوَّغٍ للإنكليز. وقام الدوق ليوبولد، ردّاً على تدنيس رايته والاستهزاء بتضحية الجنود الألمان الهائلة، بسحب جيشه من الحملة الصليبية تعبيراً عن استيائه وسخطه ممّا حصل متوعّداً بالانتقام من ريتشارد صاحب الدم الطائش والمولع بالقرصنة. ولم يتم بحث مسألة الملكية إلاّ عندما اجتمع الفرسان المحلّيون مع بعضهم وأجبروا الملك على الاهتمام بطلباتهم. وأثناء اجتماعهم في قصر الداوية، حدّد النبلاء مطالبهم بوضوح، وقال أحدهم: «لقد استولى العرب على أرضنا بالقوّة، وقد جئتم أنتم لتحرّروا مملكة أورشليم. ولكن لا يحقّ لكم أن تحرمونا من حقّنا في حكم أرضنا. لقد استولى فرسانكم على بيوتنا بحجّة أنّهم حرّروها من العرب. لذلك نرجوكم ألاّ تسمحوا بطردنا من بيوتنا».

كان الملك فيليب أوّل من رأى أنّ هذه المطالب محقّة، لأنّه كما يبدو بدأ يلين بعض الشيء، إضافةً إلىٰ فقدانه الشهية للحرب والقتال في هذه الأماكن القاحلة. لذلك قال للنبلاء: «نحن لم نأتِ إلىٰ هنا لكي نفوز بأرض أَو نستولي على ملكية أحد، إنّما جئنا في سبيل الله وكي ننقذ أرواحنا ونطهّر مملكة أورشليم من الكفرة. وبما أنّ الله منحنا هذه المدينة، فلا يجدر بنا أن نأخذها من ورثتها الحقيقيين». وأيّد المجتمعون ما قاله فيليب ووضعوا اتفاقية نصّت على أحقيّة الفرسان الأصليين باسترداد بيوتهم لكن بعد أن يخليها الجنود الإنكليز.

بعد ذلك تباطأت تلبية الشكاوى، وكتب أحد الإيطاليين بخصوص هذا الموضوع: «من الممكن أن تحكم الكنيسة والأجيال المقبلة عمّا إذا كان ملائماً طبقاً لعظمة الملوك أن يحتفظوا لأنفسهم بما اغتنمه غيرهم لمدّة سنتين متتاليتين مع كلّ ما قدّموه من التضحية والمعاناة. فبدلاً من التفكير في أنفسهم، كان عليهم أن يعوا أن عظام العديد من الناس ابيضّت في هذه الأراضي المقدّسة. فهذا النصر لا يمكن أن يُنسب إلىٰ الملكين، بل هو نصر من الله». والأمر الذي

يزيد من جدّية هذا البيان هو أنّ المقابر التابعة للمستشفى الألَماني ومستشفى القديس نقولا أصبحت ممتلئة بجثث آلاف الجنود المدفونين فيها والذين لم يكونوا ضحايا القتل فقط بل أيضاً ضحايا الجوع والطاعون.

وهكذا ذابت لحظة الانتصار في هذا الاتهام المضاد ومفاده أنّه لو حافظ النصر في عكّا على الوحدة وألهم الجنود المسيحيين، كان لتحوَّلَ من دون شك إلىٰ قوةٍ كبيرةٍ تكتسح الأراضي بسرعة ما بين عكّا والقدس. لكن جشع ريتشارد نسف التحالف الهشّ الذي كان قائماً بينه وبين فيليب. وفي أوائل تموز/ يوليو، أصيب الملك فيليب بداء الزحار وراح يبحث عن علاج له بعدما كان قد فقد شعره قبل شهر بالأرنالديا. وقد دفع به كلُّ ذلك إلىٰ الهذيان والتركيز فقط على إيجاد العلاج لمرضه وإهمال كلّ الأشياء الأخرى.

وفي استغلالٍ فرنسي ذكي وخبيث لهذا الظرف المهم، شاع خبر ملفّق عن قيام الملك ريتشارد بزيارةٍ للملك فيليب وهو على فراش المرض، وكأنّه يريد عافية حليفه المريض لكنّه في الحقيقة يسعى لأن يزيده مرضاً، وبشكل أدقّ يريد أن يقتله من الصدمة.

وتتابع الرواية الفرنسية بأنّه بعد استعلامات مملّة من قبل ريتشارد حول مدى خطورة مرض حليفه السابق فيليب، قال له بحسب المؤرّخ الفرنسي: «وكيف تواسي نفسك في ما يختص بابنك لويس؟» كان هذا الموضوع شديد الحساسية بالنسبة إلىٰ فيليب، خصوصاً وأنّ لويس كان ابنه الوحيد من إيزابيلا وقد وُلد قبل أربع سنوات وأصبح بالتالي الوريث الشرعي الوحيد لعرش فرنسا.

فردّ فيليب بقلق على سؤال ريتشارد قائلاً: «وماذا حصل لابني لويس يجعلني أواسي نفسي؟» فأجابه ريتشارد: «لقد جئتُ لهذا السبب، ألا وهو أن أواسيكَ بموت ابنك».

هذا تأريخ رخيص وتزييف للوقائع. إنّه تلفيق شرير للأحداث غايته تصوير فيليب ضحيةً لريتشارد مرّة أخرى، كما يهدف إلىٰ تزويد التاريخ ببعض التعاطف

مع فيليب في الأحداث التي تلت. ولكي لا تتحقّق أهداف الفرنسيين، قام مؤرّخ إنكليزي بإصدار تأريخه الخاص للأحداث. فقد كتب ريتشارد أوف ديفايزز Devizes، وهو راهب من ونشستر، أنّ فيليب أمر كتّابه بأن يفبركوا رسالةً دبلوماسيةً من فرنسا تتوسّله لكي يعود بسبب مرض ابنه الميؤوس منه. ولكن في الحالتين، فإنّ هذه التأريخات المزيّفة كُتبت بعد انتهاء الحملة الصليبية.

وهناك دليل على أنّ ابن فيليب كان بالفعل مريضاً في فرنسا بمرض الزحار في وقت مرض والده الملك فيليب في عكّا. لكن الملكين كانا عاجزين عن معرفة ما يحدث في باريس البعيدة عنهما آلاف الأميال. ولإضافة لمسة عجائبية على الحكاية المستحيلة، ادّعت الرواية الفرنسية للأحداث أنّ موكباً مهيباً انطلق إلىٰ سان لازار، حيث رفع الدوقات الصلوات من أجل شفاء لويس. وعندما لمس الولد المريض الأثر المقدّس في الكنيسة ألا وهو مسمار من صليب الجلجلة، شُفي مباشرة، وهذا ما كنّا نعتقد، كما فعل أبوه، الموجود بعيداً في فلسطين.

وبغضّ النظر عمّا إذا كانت قوّة طبيعية أم خارقة وراء شفاء فيليب، إلاّ أنّه بدأ بالفعل يشعر بالتحسّن، وقد شكّل ذلك ذريعةً له لكي يعود إلىٰ بلاده. وبعد النصر الذي تحقّق في عكّا، عاد السؤال الشائك حول ملك القدس الشرعي يطرح نفسه. فبعد إدراك كونراد مونتفرّا أنّ بطله، فيليب ملك فرنسا، أصبح ضعيفاً ولم يعد في شوق إلىٰ الأراضي المقدّسة، جاء إلىٰ الملك ريتشارد وجثا على ركبتيه سائلاً إيّاه أن يسامحه وأن يعطيه فرصةً لتصحيح خطئه.

كان ريتشارد وفيليب يختلفان دائماً حول مرشّحهما لتولي الحكم في الديار المقدّسة. وقد وبّخ ريتشارد فيليب ذات يوم لقطعه وعداً بترك رهائنه والتخلّي عن فتوحاته في المستقبل لصالح كونراد مونتفرّا إذا مات أو قرّر العودة إلىٰ بلاده. كما وبّخ الملك الإنكليزي فيليب مرّة أخرى في منتدى عام أمام أعين الناس قائلاً له: «لا يليق برجل في مقامك أن يتخلّى عن أشياء لم يفز بها

أصلاً أو يعد بتقديمها». وتابع يقول: «إذا كان حبّكَ للمسيح هو الدافع حقّاً وراء حجّكَ إلىٰ الأراضي المقدّسة، فعلى الأقل عندما تُحرِّرُ القدس، يجب أن تسلّمها إلىٰ شخص يستحقّ أن يكون بجدارة ملك القدس. وتذكّر أنّكَ لم تكن لتستولي على عكّا من دون مساعدتي، واليد الواحدة لا ينبغي لها أن توزّع ما هو ملك ليدين اثنتين».

في النهاية تمّ الوصول إلىٰ اتفاق، ولكنّ احتدام النزاع قبل ذلك واستعداد الملكين لأن يضرب أحدهما الآخر، جعل الثمن يرتفع كثيراً. وقد نصّ الاتّفاق بين الملكين على أن يتولّى حكم القدس، مرشّح الملك ريتشارد غي دو لوزينيان، الذي كان أوّل من شرع بحصار عكّا؛ إلاّ أنّ الاتفاق نصّ على عدم تولّي أولاده العرش بعده. وبعد وفاة غي، يصبح مرشّح فيليب كونراد مونتفرّا الأكثر حظّاً ليكون ملكاً مع السماح لورثته بتسلّم العرش من بعده. وبالتالي يبسط كونراد سيادته على صور، وبيروت وصيدا. أمّا جوفري، شقيق غي، فيتولّى حكم يافا وعسقلان، عند تحريرهما من صلاح الدِّين. أمّا بالنسبة إلىٰ مداخيل المملكة، فقد تمّ الاتفاق على وجوب تقسيمها بالتساوي بين الملكين. وبالرغم من ركوع غي وكونراد على ركبتيهما وقسمهما على أن يتقيّدا ببنود هذا الاتفاق، تركت حدّةُ النقاش بين الملكين فيليب وريتشارد أثراً سيئاً على التحالف.

وفي الثاني والعشرين من تموز/ يوليو، وبعد عشرة أيام فقط على سقوط عكّا، استقبل الملك ريتشارد وفداً مرسلاً من قِبل الملك فيليب ضمّ أسقف بوفيه Beauvais وأسقف برغنديا. قدّم الوفد الفرنسي اعتذاراً متودّداً لغياب سيّدهم الملك، مصارحين ريتشارد بأنّه لم يزل مكتئباً بعض الشيء. لكن هذا الأخير خمّن على الفور سبب مجيء هذا الوفد بطريقة رسمية ومهذّبة وهادئة، متكلّمين عن الشعور بالخزي والعار.

فقال لهم ريتشارد ببرودة: «يريد سيدكم أن يعود إلىٰ بلاده، وأنتم جئتم

تأخذون الإذن منّي». لقد اعتقد ريتشارد أنّ فيليب قد شفي من مرضه نهائياً ولكن الحقيقة أنّ فيليب لم يعد لديه عمود فقري ليظهر واقفاً، أي بمعنى آخر لقد أصيب بالشلل.

وعبّر المبعوثون الفرنسيون عن مخاوف ملكهم من أن يموت في حال بقائه في فلسطين. لقد كان الملك فيليب قلقاً على ابنه وعلى تاجه ويفكّر في مسألة تسلّم الحكم في الفلاندرز. وقد أولى الملك فيليب هذا الأمر اهتماماً شديداً بسبب تطلّب مثل هذه الأمور جهداً شخصياً وفورياً.

استمع ريتشارد إلىٰ كلام المبعوثين الفرنسيين بصبر وتأنّ. وربّما ذهب بفكره إلىٰ مشاكله الخاصّة في إنكلترا والنورماندي وآنجو، إضافةً إلىٰ مواجهة أخيه جون واستبداد لونشان. وسط كلّ هذه التحدّيات، خاطر هو بنفسه بالبقاء في هذه الحملة النبيلة والمغامِرة. وربّما يكون قد فكّر أيضاً في النذور والتعهدات في جيسور وڤيزيلي حيث أقسم مع جنوده على أمور تتعلّق باهتماماتهم الدنيوية، وقاموا بحياكة صليب الجلجلة على معاطفهم، وتقبّلوا فكرة الاستشهاد مسرورين.

«سيكون من الخزي والعار على ملك فرنسا، وفرنسا نفسها، أن يترك الحملة قبل إنجاز مهمّتنا على نحو كامل. لذلك أنصحه بألاّ يقدم على هذه الخطوة». قال ريتشارد هذا الكلام مع يقينه بأنّه لم يعد هناك أي مجال للتفاوض بخصوص هذا الأمر وبأنّه لن يستطيع أن يقنع فيليب بالعدول عن الرحيل. وأضاف ريتشارد قائلاً: «إذا كان يحدّد اختياره بين الموت هنا والعودة إلىٰ دياره، فعليه إذاً أن يفعل ما يريد». وقد شكّلت هذه الكلمات بالنسبة إلىٰ ريتشارد مَخْرَجاً جيداً من الموقف.

بعد ذلك، ذاع خبر انسحاب فيليب بسرعة بين الجنود، الأمر الذي سبّب ذعراً كبيراً في صفوفهم. وفي اليوم التالي قام عدد من الفرسان بزيارة الملك الفرنسي، وقد انفجروا بالبكاء وتوسّلوا سيّدهم كي لا يلحق العار بمجد الملوك

الذين سبقوه أَو الذين سيخلفونه. قالوا للملك إنّه لا يوجد شيء أكثر خزياً من أن ينقض الحاج قسمه. قالوا له ذلك وهم يبذلون جهداً كبيراً لإخفاء كرههم له، لكن الملك لم يحرّك ساكناً وبقي غير متأثّر.

وفي 29 تموز/ يوليو سنة 1191م، أي بعد مضي أسبوع على خبر مغادرته، عاد الملك فيليب مجدّداً يطلب مباركة ريتشارد لسفره. ولم يكن أمام ريتشارد أيّ خيار غير الموافقة على سفر فيليب. وأيّاً تكن الظروف فلم تكن لدى الملك الفرنسي نوايا عدوانية تجاه الأراضي الخاضعة لحكم ريتشارد في أوروبا طالما بقي الملك الإنكليزي في الديار المقدَّسة. وبشكل مهيب أعلن فيليب هذا الأمر وأقسم بذلك على كومة من الكتب المقدّسة. وقطع الملك الفرنسي وعداً بأن يحافظ على هذا القسم المقدّس لمدّة أربعين يوماً بعد عودة ريتشارد من الحملة الصليبية.

نظرياً، يُعتبر قَسَمُ فيليب تجديداً لاتفاقية هدنة الله. إلاَّ أنّه سرعان ما ستتحوّل هذه الاتفاقية كما سابقاتها، إلىٰ نقضٍ لعهد الرجال. فقبل مغادرة فيليب لفلسطين، سلّم نصف ما اغتنمه في عكّا إلىٰ مونتفرّا، وبعد أيام قليلة سلّمه أيضاً الرهائن المسلمين بمن فيهم قراقوش. كما سلّم قيادة جيشه لدوق برغنديا، مغدقاً عليه غنيمةً أخرى من غنائمه.

وهكذا بعدما لحق به الخزي والإهانة، وأصبح أفقر ممّا كان عليه في الأيام القليلة الماضية، وتساقط شعر رأسه، وأُصيب بقروح جلدية؛ غادر الملك الفرنسي الأراضي المقدَّسة متسللاً في خمس سفن، استعار اثنتين منها من الملك ريتشارد. لقد كان الهواء مثقلاً بجريمة انتهاك فيليب لقسمه، وقد ردّد أحد المواطنين الغاضبين من هرب فيليب قائلاً:

«يا للعار، لقد تركت أرض الله، مُسْخِطاً جميع القديسين ومُغضِباً الربّ نفسه. يجب أن يُستقبل استقبال الأشرار؛ إنّه وغد وستكون عظته خبيثة». كما كتب ريتشارد عن الملك فيليب، عندما عاد إلىٰ دياره: «تخلّى عن الهدف من

وراء حملته إلىٰ الحج، نكث عهده لله فألحق الخزي السرمدي بنفسه ومملكته». ولم يمرّ وقت طويل حتى تمّ تشبيه ما حصل بين الملكين فيليب وريتشارد بذلك الذي حصل بين النبيَّين إبراهيم ولوط في سفر التكوين. فقد كان إبراهيم ولوط أخوين لم يستطيعا العيش معاً، وهكذا بقي إبراهيم في أرض كنعان في حين غادر لوط إلىٰ الأرض الملعونة سدوم.

كانت المرحلة الأولى من رحلة عودة الملك فيليب إلىٰ فرنسا خاليةً من حوادث تُذكر وقد عبر خلالها أنطاكية، ثم اجتاز نهر «سالف Salef» حيث غرق الإمبراطور بربروسا، وبعد ذلك أبحر على طول ساحل المملكة التي منها أحضر الملوك الثلاثة الذهب واللبان والمر إلىٰ الطفل «يسوع». ولكن عندما دخلت سفينة الملك فيليب خليج الأناضول (في المكان الذي تشتّتت فيه سفن ريتشارد سابقاً) هبّت عاصفة عاتية حوّلت اتجاه السفينة بشكل معكوس، فاجتمع الفرسان على الفور حول ملكهم مدّعين أنّ السبب هو إمّا أنّ رأس الشيطان يعترض سفينتهم، وإمّا أن يكون التنين الأسود الضخم قد بدأ يشدّهم إلىٰ الأسفل. وطبقاً للرواية الفرنسية، وضع الملك الفرنسي مخاوف فرسانه من رأس الشيطان والتنين الأسود جانباً وقال لهم: «ليؤمن اليهودي بهذه الأخبار، أمّا أنا فلن أؤمن بها». لقد أصبح فجأة شجاعاً مقداماً مستنشقاً هواء النبل والتجبّر؛ وعندما سأل الملك الهارب فرسانه عن الوقت، أجابوه بأنّه منتصف الليل. فقال عندئذٍ: «في هذه الحالة، لا تخافوا، لأنّه في هذه الساعة تحديداً، فإنّ الرهبان في بلادنا مستيقظون ويصلّون من أجلنا». ولم يمضِ وقت كثير حتّى هدأت العاصفة ووصلت السفن بسلام إلىٰ برنديزي.

مرّت القافلة الملكية في طريق عودتها، بروما. وهناك احتجّ الملك فيليب بشدّة إلىٰ البابا على تصرّفات ريتشارد الوقحة، معلناً بجرأة أنّه أجبره على ترك الحملة الصليبية رغماً عنه. واستجدى البابا لكي يعفيه من قسمه بعدم مهاجمة أراضي ريتشارد أثناء وجود هذا الأخير في الأراضي المقدَّسة. لقد أكّدت هذه

التصرّفات الرخيصة من قبل فيليب وريتشارد صوابية رأي البابا لستين الثالث لجهة الدوافع الخسيسة والفاسدة لدى أبطال الحملة الصليبية. ورغم ذلك، منح البابا الملك فيليب سعف نخلة ووضع صليباً حول عنقه. إلاَّ أنّه لم يخفِ الاحتقار والغضب في صوته وهو يذكّر الملك الفرنسي بوثيقة هدنة الله محذّراً إيَّاه، تحت طائلة الحرمان الكنسي، من الإقدام على حمل السلاح ضد آخر الملوك الموجودين في الحملة الصليبية.

تحسّنت علاقة الملك فيليب بالإمبراطور الروماني، الذي كان مرتبطاً بعلاقة قرابة مع دوق النمسا المعزول وإمبراطور قبرص كومنينوس. وقد سرد الملك الفرنسي للبابا قصصاً كثيرة حول إذلال ريتشارد لأقاربه وأتباعه، وأخذ من البابا وعداً بأنّه إذا حاول ريتشارد أن يعبر أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة خلال عودته من الأراضي المقدَّسة، سيأمر بتوقيفه فوراً.

وهكذا، وقف ريتشارد قلب الأسد الآن، وحيداً تماماً، في مساعيه لاستعادة الديار المقدّسة.